﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

وكلمة ﴿ جَاهَدَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [العنكبوت] تناسب النجاح في الابتلاء ، والجهاد : بذْل الجهد في إنفاذ المراد ، ومنه اجتهد فلان في كذا يعني : عمل أقصى ما في وُسْعه من الجدِّ والاجتهاد في أن يستنبط الحكم .

والجهاد له مجالان : مجال في النفس يجاهدها ليقْوَى بمجاهدة نفسه على مجاهدة عدوه .

وجاهد : مفاعلة ، كأن الشيء الذي تريده صعب ، يحتاج إلى جهد منك ومحاولة ، والمفاعلة تكون من الجانبين : منك ومن الشيء الذي يقابلك ، وأول ميادين الجهاد النفس البشرية ؛ لأن ربك خلق فيك غرائز وعواطف لمهمة تؤديها ، ثم يأتي منهج السماء ليكبح هذه الغرائز ويُرقِّيها ، حتى لا تنطلق معها إلى ما لا يُباح .

فحب الاستطلاع مثلاً غريزة محمودة في البحث العلمي والاكتشافات النافعة ، أمّا إنْ تحوّل إلى تجسُّس وتتبع لعورات الناس فهو حرام ؛ الأكل والشرب غريزة لتقتات به ، وتتولد عندك القدرة على العمل ، فإنْ تحوَّل إلى نهم وشراهة فقد خرجت بالغريزة عن مرادها والهدف منها .

وعجيب أمر الناس في تناول الطعام ، فالسيارة مثلاً لا نعطيها خليطاً من الوقود ، إنما هو نوع واحد ، أما الإنسان فلا تكفيه عدة أصناف ، كل منها لها تفاعل في الجسم ، حينما تتجمع هذه التفاعلات تضر أكثر مما تنفع .

إذن : هذه الغرائز تحتاج منك إلى مجاهدة ؛ لتظل فى حَدِّ الاعتدال ، عملاً بالأثر : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ، ولا نشرب حتى نظمأ ، وإذا شربنا لا نقنع » .

ولو عملنا بهذا الحديث لَقضيْنا على القنبلة الذرية للاقتصاد فى بلادنا ، وكم تحلو لك اللقمة بعد الجوع مهما كانت بسيطة وغير مكلِّفة ؛ لذلك يقولون : نعم الإدام الجوع ، ثم إذا أكلتَ لا تملأ المعدة ، ودع كما قال رسول الله ﷺ : « فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه »[1] .

وبهذا المنهج الغذائى الحكيم نضمن بنية سليمة وعافية لا يخالطها مرض .

فالغرائز خلقها الله فيك لمهمة ، فعليك أنْ تقف بها عند مهمتك . ومثل الغرائز العواطف من حب وكُرْه وشفقة وحُزْن .. إلخ ، وهذه ليس لها قانون إلا أنْ تقفَ بها عند حدود العاطفة لا تتعداها إلى النزوع ، فأحبب مَنْ شئتَ وأبغض مَنْ شئتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تُرتِّب على العاطفة حكماً .

وقد ذكرنا لهذه المسألة مثالاً بسيدنا عمر - رضى الله عنه - وكان له أخٌ اسمه زيد قُتل ، ثم أسلم قاتله ، فكان عمر كلما رآه يقول له : ازْوِ عنى وجهك - يعنى : أنا لا أحبك - فيقول : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال : لا ، قال : إنما يبكى على الحب

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن غلب الآدمى نفسه فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفَس » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وابن ماجة فى سننه (٣٣٤٩) وأحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والحاكم فى مستدركه (٣٣١/٤) .

النساء . يعنى : الحب والكره مسائل يهتم بها النساء ، والمهم العمل ، وما يترتب على هذه العواطف .

ومن المجاهدة مجاهدة مَنْ سُلِّط عليك من جبار أو نحوه ، تجاهده وتصبر على إيذائه ، فحبُّك للحق يجعلك تصبر عليه ، يقول تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد]

كل هذه بلاءات تحتاج إلى مجاهدة ، فإنْ كان لك غريم فإنْ قدرتَ أن تدفع أذاه بالتى هى أحسن فافعل ، وإنْ أردت أنْ تعاقب فعاقب بالمثل ، وهذه مسألة صعبة ؛ لأنك لا تستطيع تقدير المثلية أو ضبطها ، بحيث لا تتعدى ، فمثلاً لو ضربك خصمك ضربةً ، أتستطيع أنْ تردَّ عليه بمثلها دون زيادة ؟

إذن : فلا تُدخل نفسك فى هذه المتاهة ، وأَوْلَى بك أنْ تأخذ بقوله تعالى ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران] وتنتهى المسألة .

فإذا كانت المصيبة لا غريمَ لك فيها ، كالمرض والموت وغيرهما من القدريات التى يُجريها الله عليك ، فقُلْ إن ربى أراد بى خيراً ، فبها تُكفَّر الذنوب والسيئات وبها أنال أجر الصابرين ، وربما أننى غفلت عن ربى أو غرَّتنى النعمة ، فابتلانى الله ليلفتنى إليه ويُذكِّرنى به .

ومن المجاهدة مجاهدة النفس فى تلقِّى المنهج بافعل ولا تفعل ، والتكليف عادةً ما يكون شاقاً على النفس يحتاج إلى مجاهدة ، وإياك أنْ تنقلَ مدلول افعل فى لا تفعل ، أو تنقل مدلول لا تفعل فى افعل . وحين تستقصى (افعل ولا تفعل) فى منهج الله تجده يأخذ نسبة سبعة بالمائة من حركاتك فى الحياة ، والباقى مباحات ، لك الحرية تفعلها أو تتركها .

وقد يتعرض الإنسان المستقيم للاستهزاء والسخرية حتى ممَّن هو على دينه ، لأن المنحرف دائماً يشعر بنقص فيتضاءل ويصغر أمام نفسه ، ويحاول أن يجر الآخرين إلى نفس مستواه حتى يتساوى الجميع ، وإلا فكيف تكون أنت مهتدياً مستقيماً وهو عاص ضالٌّ ؛ لذلك تراه يسخر منك ويُهوِّن من شأنك ، لماذا ؟ ليُزهِّدك في الطاعة ، فتصير مثله .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

ولا شكَّ أن مثل هذا يحتاج منك إلى صبر على أذاه ، ومجاهدة للنفس حتى لا تقع في الفخِّ الذي ينصبه لك .

وقد تأتيك الوسوسة من الشيطان فيُزيِّن لك الشر ، ويُحبِّب إليك المعصية ، وعندها تذكر قول الله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا.. (٢٧)﴾ [الأعراف]

فعليك - إذن - أن تتذكَّر العداوة الأولى بين أبيك آدم وبين الشيطان لتكون منه على حذر ، وسبق أن أوضحنا كيف نفرق بين المعصية التي تأتي من النفس ، والتي تأتي من وسوسة الشيطان ، فالنفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد غيرها ، أما الشيطان فإنْ تأبيتَ عليه في ناحية نقلك إلى أخرى ، المهم عنده أنْ يُوقعك على أي حال . إذن : أعداؤك كثيرون ، يحتاجون منك إلى قوة إرادة وإلى مجاهدة .

ومجيء هذه الآية التي تذكر الجهاد بعد قوله تعالى ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)﴾ [العنكبوت] يطلب من الإنسان الذي يعتقد أن أجلَ الله بلقاء الآخرة آتٍ ، وذلك أمر لا شكَّ فيه - يطلب منه أنْ يستعدَّ لهذا اللقاء .

وقال تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ [العنكبوت] لأن الإنسان طرأ على كون مُهيأ لاستقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، فكل ما في الكون خادم لك ، ولن تزيد أنت في مُلْك الله شيئاً ، وكل سَعْيك وفكرك لترف حياتك أنت ، فحين تفعل الخير فلن يستفيدَ منه إلا أنت وربك غني عن عطائك .

فإنْ جاهدتَ فإنما تجاهد لنفسك ، كما لو امتنَّ عليك خادمك بالخدمة فتقول له : بل خدمتَ نفسك وخدمتَ عيالك حينما خدمتَ لتوفر لك ولهم أسباب العيش ، وأنا الذي تعبتُ وعرقتُ لأوفر لك المال الذي تأخذه .

وكذلك الحق سبحانه يقول لنا ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ .. (٦)﴾ [العنكبوت] أي : حينما يطبق المنهج ويسير على هُداه ، والحق سبحانه يؤكد هذه القضية في آيات عديدة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]

ويقول الحق سبحانه : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا .. (٧)﴾ [الإسراء]

ويقول سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦)﴾ [البقرة]

إذن : المسألة منك وإليك ، ولا دخلَ لنا فيها إلا حرْصنا على صلاح الخَلْق وسلامتهم ، كصاحب الصَّنْعة الذي يريد لصنعته أن

تكون على خير وجه وأكمله ، لذلك أفيضُ عليه من قدراتى قدرة ، ومن علمى علماً ، ومن بَسْطى بَسْطاً ، ومن جبروتى جبروتاً ، وأعطيه من صفاتى .

لذلك قال بعض العارفين : « تخلقوا بأخلاق الله » .

لأن العون فى وهب الصفات ومجال الصفات فى الفعل ليس فى أنْ أفعل لك ، إنما فى أنْ أعينك لتفعل أنت ، فالواحد منا حينما يرى عاجزاً لا يستطيع حَمْل متاعه ، ماذا يفعل ؟ يحمله عنه ، أى : يُعدِّى إليه أثر قوته ، إنما يظل العاجز عاجزاً والضعيف ضعيفاً كلما أراد شيئاً احتاج لمن يقوم له به .

أما الحق - سبحانه وتعالى - فيفيض عليك من قوته ، ويهبُ لك من قدرته وغنَاه لتفعل أنت بنفسك ؛ لذلك مَنْ يتخلق بأخلاق الله يقول : لا تعْطِ الفقير سمكة ، إنما علِّمه كيف يصطاد ، حتى لا يحتاج لك فى كل الأوقات ، أفِضْ عليه ما يُديم له الانتفاع به .

إذن : الحق سبحانه يهَبُ القادرين القدرةَ ، ويهَبُ الأغنياء الغنَى ، والعلماءَ العلمَ والحكماءَ الحكمةَ . وهذه من مظاهر عظمته تعالى ألاَّ يُعدِّى أثر الصفة إلى عباده ، إنما يُعدِّى بعض الصفة إليهم ، لتكون ذاتية فيهم .

بل ويعطى سبحانه ما هو أكثر من ذلك ، يعطيك الإرادة التى تفعل بها لمجرد أن تفكر فى الفعل ، بالله ماذا تفعل لكى تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل حينما تريد أنْ تحمل شيئاً أو تحرك عضواً من أعضائك ؟ هل أمرتها أمراً ؟ هل قلت لها افعلى كذا وكذا ؟

حين تنظر إلى (البلدوزر) مثلاً أو (الونش) كيف يتحرك ،

وكيف أن لكل حركة فيه زراً يحركها وعمليات آلية معقدة ، تأمل فى نفسك حين تريد أن تقوم مثلاً بمجرد أن تفكر فى القيام ، تجد نفسك قائماً ، مرادك أنت فى الأعضاء أن تفعل وتنفعل لك .

إذن ، حينما يقول لك ربك : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] فصدِّقه ؛ لأنك شاهدتها فى نفسك وفى أعضائك ، فما بالك بربك - عز وجل - أيعجز أن يفعل ما تفعله أنت ؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تنام أو تبطش بيدك ؟

لا شىء غير الإرادة فى داخلك ؛ لأن ربك خلع عليك من قدرته ، وأعطاك شيئاً من قوله (كُنْ) ، وقدرة من قدرته ، لكن لم يشأ أنْ يجعلها ذاتية فيك حتى لا تغترّ بها .

لذلك إنْ أراد سبحانه سلَبَها منك لقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق] فتأتى لتحرك ذراعك مثلاً فلا يطاوعك ، لقد شُلَّ ويأبى عليك بعد أنْ كان طَوْع إرادتك ، ذلك لتعلم أنه هبَة من الله ، إنْ شاء أخذها فهى ليست ذاتية فيك .

فالمجاهدة تشمل ميادين عديدة ، مجاهدة الغرائز والعواطف ، ومجاهدة مشقة المنهج فى افعل ولا تفعل ، ومجاهدة شياطين الإنس والجن ، ومجاهدة خصوم الإسلام الذين يريدون أنْ يُطفئوا نور الله .

وروى البخارى أن خباب بن الأرتّ دخل على سيدنا رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إننا فى شدة ، ألاَ تستنصر لنا ؟ ألاَ تدعو لنا ؟ فقال ﷺ : إنه كان الرجل فيمن قبلكم تُحفر له الحفرة ، فيُوضع فيها ، ثم يُؤتَى بالمنشار فيُقَدُّ نصفين ، ثم يُمشَطُ لحمه عن عظمه بأمشاط الحديد ، فلا يصرفه ذلك عن دين الله » .

ثم يطمئنه رسول الله على أن هذه الفترة - فترة الابتلاء - لن تطول ، فيقول : « والله لَيُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا اللهَ والذئبَ على غنمه »[1] .

والنبى ﷺ وهو خاتم النبيين ، يدخل عليه سيدنا أبو سعيد الخدرى فيجد رسول الله ﷺ يشتكى حرارة الحمى ، فوضع يده على اللحاف الذى يلتحف به سيدنا رسول الله ، فيُحسّ حرارته من تحت اللحاف ، فقال له : يا رسول الله ، إنها لشديدة عليك ؟ فقال ﷺ : « يا أبا سعيد ، إنه يُضعَّف لنا البلاء كما يُضعَّف لنا الجزاء »[2] .

ذلك ليثبت أن البلاء لا يكون فقط من الأعداء ، إنما قد يكون من الله تعالى ، لماذا ؟ لأن الله يباهى ملائكته بخَلْقه الطائعين المخبتين الصابرين ، فيقولون : كيف لا يحبونك ويقبلون على طاعتك ، وقد أنعمتَ عليهم بكذا وبكذا ؟ ويذكرون حيثيات هذه الطاعة ، فيقول تعالى : وأسلب كل ذلك منهم ويحبوننى ، أى : يحبوننى لذاتى .

ثم تختم هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ⟨٦⟩ ﴾ [العنكبوت] لأن ميادين الجهاد هذه لا يعود منها شىء إلى الله تعالى ، ولا تزيد فى مُلكه شيئاً ، إنما يستفيد منها العبد ؛ لأنه سبحانه الغنى عن طاعة الطائعين وعبادة المتعبدين ، ليس غنياً عنهم وفقط ، إنما هو سبحانه الذى يُغنيهم ويُفيض عليهم من فَضْله ومن غناه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٨٥٢) ، وأحمد فى مسنده (٦/٣٩٥) من حديث الخباب بن الأرتّ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٤٠٢٤) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حره بين يدىَّ فوق اللحاف . فقلت : يا رسول الله ما أشدها عليك . قال : « إنا كذلك يُضعَّف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

يذكر لنا - سبحانه وتعالى - النتائج ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : بالله رباً ، له كل صفات الكمال المطلق ، وله طلاقة القدرة ، وله طلاقة الإرادة ، وهو المهيمن ، وهو الحاكم .. إلخ .

ثم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن العمل الصالح نتيجة للإيمان ، وثمرة من ثمراته ، والصالح : هو الشيء يظلُّ على طريقة الحُسْن فيه فلا يتغير ، فقد أقبلت على عالم خلقه الله لك على هيئة الصلاح فلا تفسده ، وهذا أضعف الإيمان أنْ تُبقى الصالح على صلاحه ، فإن أردتَ الارتقاء ، فزدْه صلاحاً .

يقول تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة]

فقد أعدَّ الله لنا الأرض صالحة بكل نواميسها وقوانينها ، ألاَ ترى المناطق التى لا ينزل بها المطر يُعوِّضها الله عنه بالمياه الجوفية فى باطن الأرض ، فماء المطر الزائد يسلكه الله ينابيع فى الأرض ، ويجعله مخزوناً لوقت الحاجة إليه ، وتخزين الماء العذب فى باطن الأرض حتى لا تُبخِّره الشمس ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا[1] فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك]

وضربنا مثلاً لترك الصالح على صلاحه ببئر الماء الذى يشرب

---

(١) غار الماء : ذهب فى الأرض . [القاموس القويم ٢/٦٣] .

منه أهل الصحراء ، فقد نرمى فيه القاذورات التى تُفسد ماءه ، وقد نرى مَنْ يُهيل فيه التراب فيطمسه ، وهذا كله من إفساد الصالح ، وربما يأتى مَنْ يبنى حوله سوراً يحميه ، أو يجعل عليه آلة رَفْع ترفع الماء وتُريح الناس الذين يردونه ، فإذا لم تكُنْ من هؤلاء فلا أقلَّ من أن تدعه على حاله .

فالصالح إذن : كل عمل وفكر يزيد صلاحَ المجتمع فى حركات الحياة كلها ، وإياك أن تقول إن هناك عملاً أشرف من عمل ، فكل عمل مهما رأيته هيِّناً - ما دام يؤدى خدمة للمجتمع ، ويُقدِّم الخير للناس فهو عمل شريف ، فقيمة الأعمال هى قيمة العامل الذى يُحسنها وينفع الناس بها ، يعنى : ليس هناك عمل أفضل من عمل ، إنما هناك عامل أفضل من عامل ؛ لذلك يقولون : قيمة كل امرىء مَا يُحسنه .

وسبق أن ضربتُ لذلك مثلاً ، وما أزال أضربه ، مع أنه من أُنَاس غير مسلمين : كان نقيب العمال فى فرنسا يطالب بحقوق العمال ويدافع عنهم ويُوفِّر لهم المزايا ، فلما تولى الوزارة قالوا له : أعطنا الآن الحقوق التى كنتَ تطالب بها لنا ، وربما كان يطالب لعماله بما تضيق به إمكانات وميزانيات الوزارة ، أما الآن فقد أصبح هو وزيراً ، وفى إحدى المرات تطاول عليه أحد العمال وقال : لا تنْسَ أنك كنت فى يوم من الأيام ماسحَ أحذية ، فقال : نعم ، لكننى كنت أتقنها .

ثم يذكر الحق سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح : ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ .. ⑦ ﴾ [العنكبوت] وهنا تتجلى العظمة الإلهية ، حيث بدأ بتكفير السيئات وقدَّمها على إعطاء الحسنات .

لأن التخلية قبل التحلية ، والقاعدة تقول : إن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم

على جَلْب المصلحة ، فهَبْ أن واحداً يريد أنْ يرميك مثلاً بحجر ، وآخر يريد أنْ يرمى لك تفاحة ، فأيهما تستقبل أولاً ؟ لا شكَّ أنك ستدفع أذى الحجر عن نفسك أولاً .

والخالق - عز وجل - يعلم طبيعة عباده وما يحدث منهم من غفلة وانصراف عن المنهج يُوقعهم فى المعصية ، وما دام أن الشرع يُعرِّف لنا الجرائم ويُقنِّن العقوبة عليها ، فهذا إذنٌ منه بأنها ستحدث .

لذلك يقول تعالى لعباده : اطمئنوا ، فسوف أطهركم من هذه الذنوب أولاً قبل أنْ أعطيكم الحسنات ، ذلك لأن الإنسان بطبعه أميل إلى السيئة منه إلى الحسنة ، فيقول سبحانه ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ .. ⦗٧⦘ ﴾ [العنكبوت]

بل وأكثر من ذلك ، ففى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ⦗٧٠⦘ ﴾ [الفرقان] فأىُّ كرم بعد أنْ يُبدِّل الله السيئةَ حسنةً ، فلا يقف الأمر عند مجرد تكفيرها ، فكأنه (أوكازيون) للمغفرة ، ما عليك إلا أنْ تغتنمه .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. ⦗١١٤⦘ ﴾ [هود] وفى الحديث الشريف : « .. وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها »[1] .

ثم يذكر سبحانه الحسنة بعد ذلك : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٨/٥ ، ٢٣٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٣٧٦/٤) من حديث معاذ بن جبل ، وتمامه : « اتق الله حيثما كنت . وأتبع السيئة الحسنة تمحُها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

يَعْمَلُونَ ⟨٧⟩﴾ [العنكبوت] قلنا : إن الحق سبحانه إذا أراد أنْ يعطى الفقير يقترض له من إخوانه الأغنياء ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. ⟨٢٤٥⟩﴾ [البقرة]

مع أنه سبحانه واهب كل النعم يحترم ملكية عباده ، ويحترم مجهوداتهم وعرقهم ، فاحترم العمل واحترم ثمرة العمل ، كما يعامل الوالد أولاده ، فيأخذ من الغنى لمساعدة الفقير على أنْ يعيد إليه ماله حين مَيْسرة ، فكما أنك لا ترجع فى هبتك ، كذلك ربُّك - عز وجل - لا يرجع فى هبته .

وأذكر ونحن فى أمريكا سألنا أحد المستشرقين يقول : هناك تعارض بين قول القرآن : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. ⟨١٦٠⟩﴾ [الأنعام] وبين قول النبى ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر »[1] .

فشاء الله أن يلهم بكلمتين للردِّ عليه ، حتى لا يكون للكافرين على المؤمنين سبيل . فقلت للمترجم : نعم الحسنة بعشر أمثالها حين تتصدَّق ، لكن فى القرض مثلاً لو تصدَّق بدولار فهو عند الله بعشرة دولارات ، لكن يعود عليك دولارك مرة أخرى ، فكأن لك تسعة دولارات ، فحين تضاعف تصير ثمانية عشر .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى الدائرة الأولى فى تكوين المجتمع ، وهى دائرة الأسرة المكوَّنة من : الأب ، والأم ، والأولاد ،

---

(١) عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى مكتوباً على بابها : الصدقة بعشر أمثالها . والقرض بثمانية عشر » رواه الطبرانى والبيهقى كلاهما من رواية عتبة بن حميد (الترغيب والترهيب للمنذرى ٢ / ٢٤) .

فأراد سبحانه أن يُصلح اللبنة الأولى ليصلح المجتمع كله ، فقال تبارك وتعالى[1] :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾

الوالدان يخدمان الابن حتى يكبر ، ويصير هو إلى القوة فى حين يصيران هما إلى الضعف ، وإلى الحاجة لمن يخدمهما ، وحين ننظر فى حال الغربيين مثلاً وكيف أن الأبناء يتركون الآباء دون رعاية ، وربما أودعوهم دار المسنين فى حالة برِّهم بهم ، وفى الغالب يتركونهم دون حتى السؤال عنهم ؛ لذلك تتجلى لنا عظمة الإسلام وحكمة منهج الله فى مجتمع المسلمين .

لذلك قال أحد الحكماء : الزواج المبكر خير طريقة - لا لإنجاب طفل - إنما لإنجاب أب لك يعولك فى طفولة شيخوختك . لذلك أراد الحق سبحانه أن يبنى الأسرة على لبنات سليمة ، تضمن سلامة المجتمع المؤمن ، فقال سبحانه : ﴿ ووصَّيْنا الإنسان بوالديْه حُسْنًا .. ۝٨ ﴾ [العنكبوت] ، وفى موضع آخر قال سبحانه فى نفس الوصية ﴿ ووصَّيْنا الإنسان بوالديْه إحْسانًا .. ۝١٥ ﴾ [الأحقاف]

(١) سبب نزول الآية : قال المفسرون : نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وذلك أنه لما أسلم قالت له أمه جميلة : يا سعد بلغنى أنك صبوت ، فوالله لا يظلنى سقف بيت من الضح والريح ، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد ، وترجع إلى ما كنت عليه ، وكان أحبّ ولدها إليها ، فأبى سعد فصبرت هى ثلاثة أيام لم تأكل ، ولم تشرب ، ولم تستظل بظلٍّ حتى خشى عليها ، فأتى سعد النبى ﷺ وشكا ذلك إليه ، فأنزل الله هذه الآية والتى فى لقمان والأحقاف . [أسباب النزول للواحدى ص ١٩٥].

وفَرْق بين المعنيين : ﴿ حُسْنًا .. ۝٨ ﴾ [العنكبوت] أى : أوصيك بأنْ تعملَ لهم الحُسْنَ ذاته ، كما تقول : فلان عادل ، وفلان عَدْل ، فوصَّى بالحسْن ذاته . أما فى ﴿ إِحْسَانًا .. ۝١٥ ﴾ [الأحقاف] فوصية بالإحسان إليهما .

لكن ، لماذا وصَّى هنا بالحُسْن ذاته ، ووصَّى هناك بالإحسان ؟

قالوا : وصَّى بالحسن ذاته فى الآية التى تذكر اللدد الإيمانى ، حيث قال : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا .. ۝٨ ﴾ [العنكبوت] والكفر يستوجب العداوة والقطيعة ، ويدعو إلى الخصومة ، فأكَّد على ضرورة تقديم الحسن إليهما ؛ لا مجرد الإحسان ؛ لأن الأمر يحتاج إلى قوة تكليف .

أما حين لا يكون منهما كفر ، فيكفى في برِّهما الإحسان إليهما ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ۝١٥ ﴾ [لقمان]

والحق سبحانه حين يُوصى بالوالدين ، وهما السبب المباشر فى الوجود إنما ليجعلهما وسيلةَ إيضاح لأصل الوجود ، فكما أوصاك بسبب وجودك المباشر وهما الوالدان ، فكذلك ومن باب أَوْلى يوصيك بمَنْ وهب لك أصل هذا الوجود .

فكأن الحق سبحانه يُؤنس عباده بهذه الوصية ، ويلفت أنظارهم إلى ما يجب عليهم نحو واهب الوجود الأصلى وما يستحقه من العبادة ومن الطاعة ؛ لأنه سبحانه الخالق الحقيقى ، أما الوالدان فهما وجود سببى .

هذا إيناس بالإيمان ، بيَّنه تعالى فى قوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ۝٣٦ ﴾ [النساء] لأنهما سبب الوجود الجزئى ، والله تعالى سبب الوجود الكلى .

وهذا أيضاً من المواضع التي وقف عندها المستشرقون ، يبغُونَ فيها مَطْعناً ، ويظنون بها تعارضاً بين آيات القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] وفي موضع آخر : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة]

وهذا التعارض لا يوجد إلا في عقول هؤلاء ؛ لأنهم لا يفهمون لغة القرآن ، ولا يفرقون بين الودِّ والمعروف : الودّ مَيْل القلب ، وينشأ عن هذا الميل فعْل الخير ، فيمن تميل إليه ، أمّا المعروف فتصنعه مع مَنْ تحب ومَنْ لا تحب ، فهو استبقاء حياة .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [العنكبوت] يعني : تذكَّر هذا الحكم ، فسوف أسألك عنه يوم القيامة ، ففي موضع آخر ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [لقمان]

فكُفْر الوالدين لا يعني السماحَ لك بإهانتهما أو إهمالهما ، فاحذر ذلك ؛ لأنك ستُسأل عنه أمام الله : أصنعتَ معهما المعروف أم لا ؟

وحيثيات الوصية بالوالدين : الأب والأم ذُكرت في الآية الأخرى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] نلحظ أن الحيثيات كلها للأم ، ولم يذكر حيثية واحدة للأب إلا في قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾ [الإسراء] وهذه تكون في الآخرة .

قالوا : ذكْر الحيثيات كلها للأم ؛ لأن متاعب الأم كانت حال الصِّغَر ، والطفل ليس لديه الوعى الذى يعرف به فَضْل أمه وتحمُّلها المشاق من أجله ، وحين يكبر وتتكوَّن لديه الإدراكات يجد أنَّ الأب هو الذى يقضى له كل ما يحتاج إليه .

إذن : فحيثيات الأب معلومة مشاهدة ، أمّا حيثيات الأم فتحتاج إلى بيان .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾

فقدَّم الإيمان ، لأنه الأصل ، ثم العمل الصالح ، وكأن الدخول فى الصالحين مسألة كبيرة ، وهى كذلك ، ويكفى أنها مُتَمنى حتى الأنبياء أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله تعالى : ﴿ومن النّاس من يقول آمنّا بالله .. ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت] قال : كان أناس من المؤمنين آمنوا وهاجروا ، فلحقهم أبو سفيان ، فرد بعضهم إلى مكة فعذبهم فافتتنوا ، فأنزل الله فيهم هذا . [الدر المنثور ٦/٤٥٢] ، القرطبى فى [تفسيره ٧/٥٢١٨] : « وقيل : نزلت فى عياش بن أبى ربيعة ، أسلم وهاجر ، ثم أوذى وضُرِب فارتد . وإنما عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخويه لأمه » .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ .. ۝١٠ ﴾ [العنكبوت] دليل على القول باللسان ، وعدم الصبر على الابتلاء ، فالقول هنا لا يؤيده العمل ، ولمثل هؤلاء يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ ﴾ [الصف]

ويقول تعالى في صفات المنافقين : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ ﴾ [المنافقون] فالله تعالى لا يُكذِّبهم في أن محمداً رسول الله ، إنما في شهادتهم أنه رسول الله ؛ لأن الشهادة لا بُدَّ لها أنْ يواطىء القلب اللسان ، وهذه لا تتوفر لهم .

ومعنى : ﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ .. ۝١٠ ﴾ [العنكبوت] أي : بسبب الإيمان بالله ، فلم يفعل شيئاً يؤذى من أجله ، إلا أنه آمن ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ .. ۝١٠ ﴾ [العنكبوت] فتنة الناس أي : تعذيبهم له على إيمانه كعذاب الله .

إذن : خاف عذاب الناس وسوَّاه بعذاب الله الذي يحيق به إنْ كفر ، وهذا غباء في المساواة بين العذابين ؛ لأن عذابَ الناس سينتهي ولو بموت المؤذى المعذَّب ، أما عذاب الله في الآخره فباق لا ينتهي ، والناس تُعذِّب بمقدار طاقتها ، والله سبحانه يُعذب بمقدار طاقته تعالى وقدرته ، إذن : فالقياس هنا قياس خاطىء .

وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت في عياش بن أبي ربيعة[1] ، فالقاعدة الأصولية تقول : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

---

(١) قال ابن حجر في كتابه « الإصابة في تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٦١١٨) : « يلقب ذا الرمحين ، ابن عم خالد بن الوليد بن المغيرة ، كان من السابقين الأولين وهاجر الهجرتين ثم خدعه أبو جهل إلى أن رجعوه من المدينة إلى مكة فحبسوه ، وكان النبي ﷺ يدعو له في القنوت . مات عام ١٥ هـ بالشام في خلافة عمر ، وقيل : استشهد باليمامة . وقيل : باليرموك » .

السبب ، وكان عياش بن أبى ربيعة أخا عمرو بن هشام (أبو جهل) والحارث بن هشام من الأم التى هى أسماء[١] .

فلما أنْ أسلم عياش ثم هاجر إلى المدينة فحزنت أمه أسماء ، وقالت : لا يظلنى سقف ، ولا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً ، ولا أغتسل حتى يعود عياش إلى دين آبائه[٢] ، وظلت على هذه الحال التى وصفتْ ثلاثة أيام حتى عضَّها الجوع ، فرجعت .

وكان ولداها الحارث وأبو جهل قد انطلقا إلى المدينة ليُقنعا عياشاً بالعودة لاسترضاء أمه ، وظلا يُغريانه ويُرقِّقان قلبه عليها ، فوافق عياش على الذهاب إلى أمه ، لكنه رفض الردة عن الإسلام ، فلما خرج الثلاثة من المدينة قاصدين مكة أوثقوه فى الطريق ، وضربه أبو جهل مائة جلدة ، والحارث مائة جلدة .

لكن كان أبو جهل أرأف به من الحارث ؛ لذلك أقسم عياش بالله لئن أدركه يوماً ليقتلنه حتى إنْ كان خارجاً من الحرم ، وبعد أن

---

(١) هى : أسماء بنت مخربة . ويقال : بنت عمرو بن مخربة بن جندل ، ذكر البلاذرى عن أبى عبيدة معمر بن المثنى : قدم هشام بن المغيرة نجران فرأى أسماء بنت مخربة فأعجبته فتزوجها وحملها إلى مكة فولدت له أبا جهل والحارث ، ثم مات ، فتزوجها عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة فولدت له عياشاً ، فكان أخا أبى جهل والحارث لأمهما . وقال : قال محمد بن سعد : إنها ماتت كافرة قبل أن يهاجر ابنها عياش إلى المدينة . ويقال : إنها أسلمت وأدركت خلافة عمر ، وذلك أثبت» (الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٨/ ١٠) .

(٢) أورد الواحدى النيسابوري هذه القصة في (أسباب النزول ص ٩٧) . فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا .. (٩٢)﴾ [النساء] وفيه أن أبا جهل والحارث بن هشام خرجا يطلبان أخاهما لأمهما عياشا ، فأتوه وهو فى الأطم (حصن بالمدينة مبنى بالحجارة) ، فقالا له : انزل فإن أمك لم يؤوها سقف بيت بعدك ، وقد حلفت لا تأكل طعاماً ولا شراباً حتى ترجع إليها ، ولك الله علينا أن لا نكرهك على شيء ولا نحول بينك وبين دينك ، فلما ذكرا له جزع أمه وأوثقا له ، نزل إليهم فأخرجوه من المدينة وأوثقوه بنسع وجلده كل واحد منهم مائة جلدة » .

استرضى عياش أمه عاد إلى المدينة ، فقابل أخاه الحارث[1] عند قباء ، ولم يكن يعلم أنه قد أسلم فعاجله ونفّذ ما توعده به فقتله ، ووصل خبره إلى رسول الله ﷺ ونزلت الآية : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا .. (٩٢)﴾ [النساء]

ونزلت : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ .. (١٠)﴾ [العنكبوت] أى : أراد أنْ يفرّ من عذاب الناس فكفر ، ولم يُرد أن يفرّ من عذاب الله ويؤمن .

وقوله تعالى : ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ .. (١٠)﴾ [العنكبوت] أى : اجعلوا لنا سهماً فى المغنم ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [العنكبوت] فالله سبحانه يعلم ما يدور فى صدورهم وما يتمنونه لنا ؛ ولذلك يقول سبحانه عنهم : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً (٤٧)﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)﴾

نعم ، الحق سبحانه يعلم حال عباده حتى قبل أنْ يخلقوا ، ويعلم ماذا سيحدث لهم ، إنما هناك فَرْق بين علم مُسْبق على الحدث ، وعلْم بعد أنْ يقع الحدث نفسه ؛ لأنه سبحانه لو قال : سأفعل بهم كذا

(١) تحقيق هذا الأمر : أن عياشاً لم يقتل الحارث أخاه ، بل قتل الحارث بن يزيد بن أنيسة وكان مع أخويه أبى جهل والحارث عندما أوثقاه وضرباه . قال ابن حجر فى « الإصابة » فى ترجمته (١٥٠٤) : « كان يؤذيهم بمكة وهو كافر ، فلما هاجر الصحابة أسلم الحارث ولم يعلموا بإسلامه وأقبل مهاجراً ، حتى إذا كان بظاهر الحرة لقيه عياش بن أبى ربيعة فظنه على شركه فعلاه بالسيف حتى قتله ، فنزلت هذه الآية » . وانظر أسباب النزول للواحدى (ص ٩٧) ، وابن كثير فى تفسيره (١/٥٣٤) .

وكذا ؛ لأنى أعلم ما يحدث منهم لقالوا : لا والله ما كان سيحدث منا شيء ؛ لذلك يتركهم حتى يحدث منهم الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

وهذا لَوْن من ألوان الإيذاء أن يقول الذين كفروا للذين آمنوا ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : ما نحن عليه من دين الآباء والأجداد ، وما نحن عليه من عبادة الأصنام والأوثان ، فنحن نعبد آلهة لا تكاليفَ لها ولا مطلوبات ، وأنتم تعبدون إلهاً له منهج ، وله مطلوبات بافعل كذا ولا تفعل كذا .

فالمعنى : ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] خُذوا الحكم منا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : اعملوا على مسئوليتنا ، وإنْ كانت عليكم خطايا سنحملها عنكم ، وانظر هنا إلى غباء الكافر فقد آمن هو نفسه أن هذه خطيئة ، ومع ذلك يتعرَّض لحملها ، لكن كيف يحملها ؟ وكيف يكون هو المسئول عنها أمام الله - عز وجل - حين يحاسبنى ربى عليها ويعاتبنى على اتباعى له ؟ وهل للكافر شفاعة أو قوة يدافع بها عنى فى الآخرة ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] ويؤكد لنا سبحانه كذبهم أيضاً فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ .. ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة]

ويقول التابعون : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

فالمودة التي كانت بينهم في الدنيا تحولتْ إلى عداوة ؛ لأنهم اجتمعوا في الدنيا على الضلال ، فتفرقوا في الآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف] فالمتقى ساعة يرى المتقى في الآخرة يشكره ، ويعترف له بالجميل ؛ لأنه أخذ على يديه في الدنيا ، ومنعه من أسباب الهلاك ، فيحبه ويثنى عليه ، وربما اعتبره عدوه في الدنيا . أما أهل الضلال فيلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض .

إذن : فغباء الكفار بيّن في قولهم : ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ .. (١٢) ﴾ [العنكبوت] ، كما هو بيّن في قولهم ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وكما هو بيّن في قولهم : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] فهم يعرفون أنه رسول الله ، ومع ذلك يمنعون الناس من الإنفاق على الفقراء الذين عنده ، إنه غباء حتى في المواجهة .

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾

وفي موضع آخر : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ [النحل] . فالأثقال هي الأوزار ، فسيحملون أثقالاً على أثقالهم ، وأوزاراً على أوزارهم ، فالأثقال الأولى بسبب ضلالهم ، والأثقال الأخرى بسبب إضلالهم

للغير[1] ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ [العنكبوت] والافتراء : تعمُّد الكذب .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن المقدمات في عمومها ، أراد أنْ يتكلَّم عنها في خصوص الرسالات ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ[2] إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٤) ﴾

يقول العلماء : إن نوحاً ـ عليه السلام ـ هو أول رسل الله إلى البشر ، أما مَنْ سبقه مثل آدم وإدريس عليهما السلام ، فكانوا أنبياء أوحى الله إليهم بشرع يعملون به ، فيكونون نموذجاً إيمانياً ، وقدوة سلوك طيب ، يُقلِّدهم مَنْ رآهم ، لكن لا يُعَدُّ كافراً مَنْ لم يقتَدِ بهم ، أما إنِ اقتدى بهم ثم نكث عن سبيلهم فهو كافر .

لذلك نُفرِّق بين النبي والرسول ، بأن النبي أُوحى إليه بشرع يعمل به ولم يُؤْمر بتبليغه ، أما الرسول فقد أُوحِي إليه بشرع وأُمر بتبليغه فكلٌّ منهما مرسل ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ .. (٥٢) ﴾ [الحج]

(١) أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن ابن الحنفية رضي الله عنه قال : كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاءوا إلى النبي ﷺ يسلمون ، يقولون : إنه يحرم الخمر ، ويحرم الزنا ، ويحرم ما كانت تصنع العرب ، فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. (١٣) ﴾ [العنكبوت] [أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٥٤] .

(٢) أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم الدنيا » (ص ٨٨ مكتبة القرآن) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء ملك الموت إلى نوح عليه السلام . فقال : يا أطول النبيين عمراً ، كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتاً له بابان ، فوقف وسط الباب هنيهة ، ثم خرج من الباب الآخر . وأورده السيوطي في « الدر المنثور » (٦/٤٥٦) .

إذن : فالنبى أيضاً مُرسَل ، لكنه مُرسَل لذاته .

لكن لماذا كان هذا قبل نوح بالذات ؟ قالوا : لأن الرقعة الإنسانية كانت ضيقة قبل نوح ، وكان الناس حديثى عهد ، لم تنتشر بينهم الانحرافات ، فلما اتسعت الرقعة ، وتداخلت أمور الحياة احتاجت الخليقة لأنْ يرسل الله إليهم الرسل .

والحق سبحانه يأتى بهذه اللقطة الموجزة من قصة نوح - عليه السلام - مع أن له سورة مفردة ، وله لقطات كثيرة منثورة فى الكتاب العزيز ، لكن هذه اللقطة تأتى لنا بالبداية والنهاية فقط وكأنها برقية (تلغرافية) فى مسألة نوح :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ .. (١٤) ﴾ [العنكبوت]

إذن : الرسول جاء من القوم ، وهذا يعنى أنهم يعرفونه قبل أن يكون رسولاً ، ويُجرِّبون سلوكه وحركته فى الحياة ، ويعرفون خُلقه ، ويعرفون كل تصرفاته ، فليس الرسول بعيداً عنهم أو مجهولاً لهم .

لذلك كان رسول الله ﷺ حينما جهر بالدعوة آمن به الذين يعرفونه عن قُرْب دون أنْ يسألوه عن معجزة تؤيده ، بل بمجرد أنْ قال أنا رسول الله آمنوا به وصدَّقوه واتبعوه .

فسيدنا أبو بكر ، هل سمع من رسول الله قبل أن يؤمن به ؟ لا ، إنما بمجرد أن قالوا له : إن صاحبك تنبأ قال : آمنت به[1] ، لماذا ؟ لأنه يعرف له سوابق يبنى عليها إيمانه بصاحبه ، فما كان محمد ليكون صاحب خُلق عظيم مع الناس ، ثم يكذب على الله .

(١) أورد البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٦٤) أن رسول الله ﷺ قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر ، إلا أبا بكر ما عتَّم منه حين ذكرته وما تردد فيه » وعزاه لابن إسحاق .

إذن : ففى كَوْن الرسول من قومه إيناسٌ للخَلْق ؛ لذلك لما قالوا : لا نؤمن إلا إذا جاءنا الرسول ملكاً ردَّ عليهم : أأنتم ملائكة حتى ينزل عليكم ملَك ؟

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

ولو فُرض أننا أرسلناه مَلَكاً أهم يرونْ الملائكة ؟ لا يرونْها ، فكيف إذن يُبلِّغ الملَك الناس ؟ لا بُدَّ أنْ يأتيهم فى صورة بشر ، ولو أتاهم فى صورة بشر لقالوا نريد ملكاً .

وقوله عز وجل : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] هذا العدد من الممكن أن يؤدى لمعانٍ كثيرة ، فلم يقُلْ : فلبث فيهم تسعمائة وخمسين عاماً[1] . وفى الأعداد فى القرآن أسرار كثيرة ، واقرأ مثلاً : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. (١٤٢) ﴾ [الأعراف]

وفى آية سورة البقرة قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. (٥١) ﴾ [البقرة]

ففى سورة البقرة إجمال ، وفى آية الأعراف تفصيل . والحكمة فى هذا أن موسى عليه السلام ما إن ذهب لميقات ربه حتى عبد قومه العجل فى مدة الثلاثين ليلة .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٢٢/٧) : فإن قيل : فلم قال ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] ولم يقل : تسعمائة وخمسين عاماً ، ففيه جوابان :
أحدهما : أن المقصود به تكثير العدد ، فكان ذكره الألف أكثر فى اللفظ ، وأكثر فى العدد .
الثانى : ما رُوى أنه أعطى من العمر ألف سنة ، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده ، فلما حضرته الوفاة رجع فى استكمال الألف ، فذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن النقيصة كانت من جهته » .

ولم يشأ الله أن يترك موسى ليعود لقومه بعد الثلاثين ليلة ، بل أتمها بعشر أُخر ، حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ، فكأن العشْرَ زادتْ على الثلاثين ليلة ، ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة فى سورة البقرة .

فالمسألة في منتهى الدقة ، ولو لم يأت بالاستثناء فى قوله : ﴿ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] فربما يظن السامع أن المسألة تقريبية ، لكن التقريب فى عَدِّ البشر ، أما فى حساب الحق سبحانه فهو منتهى الدقة ، كما لو سُئلت مثلاً عن الساعة ، فتقول : الساعة العاشرة إلا دقيقة ونصفاً ، يعنى : منتهى ما فى استطاعتك من حساب الوقت .

فإن قلتَ : فلماذا هذه اللقطة السريعة من قصة نوح عليه السلام ؟ نقول : هى لتسلية رسول الله ﷺ ؛ لأن قومه وقفوا منه موقف العداء والمكابرة والتكذيب ، وآذوْا أصحابه ، وضيَّقوا الخنَاق على دعوته ، وقد طالتْ هذه المسألة حتى أخذت ثلاث عشرة سنةَ من عمر الدعوة ، فسلاَّه ربه : اصبر يا محمد ، فقد صبر زميل لك فى الدعوة ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يعنى مدة المشقة التى تحملتها ما زالت بسيطة هيِّنة ، وقد تحمَّل أولو العزم من الرسل أكثر من ذلك .

ونلحظ هنا ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] ثم استثنى منها ﴿ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] ولم يقُلْ خمسين سنة ، فاستثنى الأعوام من السنين ، ليدلَّك على أن السنة تعنى أىَّ عام ، ويُرفَع الخلاف ؛ لأن البعض يقول : إن السنة هى التى تبدأ من أول المحرم إلى آخر ذى الحجة ، فى حين أن السنة ليس من الضرورى أنْ تبدأ بالمحرم وتنتهى بذى الحجة ، إنما تبدأ فى أى وقت وتنتهى فى مثله بعد عام كامل .

فحين نقول : فلان عمره مثلاً عشرون سنة ، أى : من يوم مولده إلى مثله عشرين مرة ، وكذلك العام . إذن : السنة والعام والحجة ، كلها سواء أردتَ الحساب بالسنة الشمسية ، أو القمرية ، أو غيرها كما تحب .

ومعلوم أن التوقيتات عندنا توقيتات هلالية بالشهر العربى ؛ لأن الشمس لا يُعرف من حركتها إلا اليوم ، إنما لا نعرف منها الشهر ، الشهر نعرفه بحركة القمر حين يُولَد الهلال ، وبالشهر نحسب السنة التى هى اثنا عشر شهراً قمرياً وتزيد أحد عشر يوماً فى السنة الشمسية .

وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يُعلِّمنا أن السنة هى العام ، لا فَرْق بينهما ، ولا داعيَ للجاج فى هذه المسألة .

ثم يذكر سبحانه نهاية هؤلاء القوم الذين كذَّبوا : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) ﴾ [العنكبوت] فالعلة فى أخذهم ، لا لأنهم أعداء ، بل لأنهم ظالمون لأنفسهم بالكفر ، وهكذا تنتهى القصة أو اللقطة فى آية واحدة الغرض منها تسلية النبى ﷺ ، إنْ أبطأ نَصْره على الكفار .

وكلمة ﴿ فَأَخَذَهُمُ .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] الأَخْذ فيه دليل على الشدة وقوة التناول ، لكن بعنف أو بغير عنف ؟ إنْ كان الأخذ لخصْم فهو أَخْذ بعنف وشدة ، وإنْ كان لغير خَصْم كان بلطف .

والطوفان : أن يزيد الماء عن الحاجة الرتيبة للناس ، فبعد أنْ كان وسيلة حياة ، ومنه كل شىء حى يصبح وسيلة موت وهلاك ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أنْ يلفت أنظارنا إلى المتقابلات فى الخَلْق حتى لا نظنَّ أن الخَلْق يسير برتابة .

فسيدنا موسى - عليه السلام - ضرب البحر بالعصا ، فتجمَّد فيه

الماء حتى صار كالجبل ، وضرب بها الحجر فانبجس منه الماء .

إنها طلاقة القدرة التى لا تعتمد على الأسباب ، فالمسبِّب هو الله سبحانه يفعل ما يشاء ، فليست الأشياء بأسبابها ، إنما بمراد المسبِّب فيها ؛ لذلك يقول أحمد شوقى فى قصيدة النيل :

مِنْ أىِّ عَهْدٍ فى القُرَى تتدفقُ وبأىِّ كفٍّ فِى المدائنِ تُغْدِقُ

ومِنَ السماءِ نزلْتَ أم على الجنَان جداولاً تترقرقُ

إلى أنْ يقول :

الماء تَسْكُبه فَيُصبح عَسْجَداً[1] والأرضُ تُغرقُها فيحيَا المغْرَقُ

والمأخوذ هنا هم المكذِّبون لنوح ـ عليه السلام ـ الذين ظلموا أنفسهم لما كذَّبوا رسولهم ، ولم يستمعوا للهدى ، ثم يُنجِّى الله نوحاً ـ عليه السلام ـ بالسفينة التى قال الله عنها فى سورة هود : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

وقد أمره الله بصناعة السفينة : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾ [هود] فكان نوح ـ عليه السلام ـ على علم بعاقبة المكذِّبين الظالمين من قومه ، واحتفظ بها فى نفسه ، وهو يصنع السفينة كما أمره ربه .

لكن ، أكانت السفينة شيئاً معروفاً لهؤلاء القوم ، ولها مثال سابق لديهم ؟ لا ، لم يكونوا يعرفون السفن ، بدليل أنهم تعجَّبوا من فعْل نوح ، وسخروا منه وهو يصنعها ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. (٣٨) ﴾ [هود] فكان يردُّ عليهم فى نفسه : ﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا

---

(١) العسجد : الذهب . وقيل : هو اسم جامع للجوهر كله من الدر والياقوت [لسان العرب ـ مادة : عسجد] .

نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾ [هود] فهو يعلم عاقبتهم وما يُبيِّته الله لهم .

والحق سبحانه يعطينا هذه اللقطة من قصة نوح ـ عليه السلام ـ لكى نجول فى كل اللقطات ، ونستحضر مواطن العبرة فيها ، وفى قصة نوح مسائل كثيرة نستفيدها ، فقد كان القوم يعبدون الأصنام : وداً ، وسواعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً ، ومنها نعلم أن ودادة الأنبياء ودادة قيم ومنهج ، وودادة أعمال واقتداء ، وأن أنسابهم أنساب تقوى وورع .

فنبوّة نوح لم تمنع ولده الضالّ من الغرق ، حتى بعد أنْ دعا الله : ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ .. (٤٥)﴾ [هود] فيعطيه الله الحكم فى هذه المسألة ، ويُصحِّح له : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

وليس معنى ذلك أن أمه أتتْ به من الحرام والعياذ بالله ؛ لأن الله تعالى ما كان ليُدلِّس على نبى من أنبيائه ، إنما هى كانت من الخائنين ، وخيانتها أنها كانت تفشى أسراره لخصومه ، وتخبرهم خبره ؛ لذلك يقول تعالى عنها فى سورة التحريم : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. (١٠)﴾ [التحريم]

ويُبيِّن الحق سبحانه العلة فى قوله : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦)﴾ [هود] بقوله ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود] حتى لا تذهب بنا الظنون فى زوجة نبى الله ، فالعلة أنه عمل غير صالح ، وبنوة الأنبياء بُنوَّة عمل ، لا بُنوَّة نَسَب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَهَا[1] ءَايَةً لِّلْعَلَمِينَ (١٥) ﴾

أى : فأنجينا نوحاً عليه السلام ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. (١٥) ﴾ [العنكبوت] هم الذين يركبون معه فيها ، فهم أصحابها ، وقد صُنعت من أجلهم ، لم يصنعها نوح لذاته ، إنما صنعها لقومه الذين تعجَّبوا من صناعته لها وسَخروا منه واستهزأوا به ، فهم أصحابها فى الحقيقة ، مَنْ آمن منهم ركب فيها ، ومَنْ كفر أبى وأعرض ، فكانت نهايته الغرق .

ونفهم من هذه القضية أن الحق سبحانه حينما يطلب من المؤمن شيئاً يعطيه لمَنْ لا يجد ذلك الشىء ، سواء كان علْماً أو مالاً أو قدرة .. إلخ افهم أنها حق له ، وليستْ تفضلاً عليه ، فلما صنع نوح السفينة جعلها الله من حق القوم فقال ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. (١٥) ﴾ [العنكبوت] فهى حقٌّ لهم ، فليس المراد منها أن يصنعها مثلاً ، ويُؤجرها لهم ، لا بل هو يصنعها من أجلهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) ﴾ [المعارج] وقد ورد هذا الحق فى المال مرتين فى القرآن الكريم ، مرة ﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) ﴾ [المعارج] ، ومرة أخرى ﴿ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] دون أن يحدد مقداره ، ودون أنْ يُوصف بالمعلومية .

وقد سمَّاهما الله حقاً ، فالمعلوم هو الزكاة الواجبة فى مقام

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٢٣/٧) : « الهاء والألف فى « جعلناها » للسفينة ، أو للعقوبة ، أو للنجاة ، ثلاثة أقوال » .